خطبة الجمعة

التي ألقاها أمير المؤمنين سيدنا مرزا مسرور أحمد أيده الله تعالى بنصره العزيز

الخليفة الخامس للمسيح الموعود والإمام المهدي عليه السلام

بتاريخ ١٥/٥/٢٠٢٦

في المسجد المبارك بإسلام آباد في بريطانيا

*****

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله. أما بعد فأعوذ بالله من الشيطان الرّجيم. ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾، آمين.

إننا نؤمن إيمانًا راسخًا بأنه إن وُجد في هذه الدنيا إنسانٌ كاملٌ، فهو سيدنا محمد المصطفى ﷺ. فلم يُولَد قبله إنسانٌ كاملٌ كمثله، ولن يُولَد بعده مثيلٌ له. فأداءُ حقوق الله تعالى، وأداءُ حقوق العباد، وأعلى مستويات الأخلاق والصفات الإنسانية، كلها مجتمعةٌ في شخصه ﷺ. فأيُّ خُلُقٍ تأخذه، تجده فيه بأعلى المستويات التي لم تكن في إنسانٍ آخر لا سابقا ولا حاضرا ولا مستقبلا. ومن هذه الصفات والأخلاق خُلُقُ التواضع والإنكسار، الذي تجد أرقى مثالٍ له في شخصه ﷺ. وقد أوصى أتباعه دائمًا بأن على المؤمن أن يسعى دومًا لجعل خُلُق التواضع جزءًا لا يتجزأ من حياته. وقد أعلن الله تعالى هذا الخُلُقَ الرفيع في القرآن الكريم بهذه الكلمات: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾. ومع من أن الله تعالى قد رزقه مقام النبي الذي جاء بالشريعة الكاملة النهائية، إلا أنه أمره بأن يُعلن: قُل إنني بشرٌ وإنسانٌ متواضع. وعلى هذا الأساس، سأستعرض اليوم بعض الأحاديث النبوية وبعض المقتطفات من كلام المسيح الموعود عليه السلام، التي تظهر هذا الخُلُق في مناسباتٍ شتى. يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام: "لا توجد في العالم أسوة أكمل من نبينا الأكرم ﷺ، ولن تكون إلى يوم القيامة. ثم انظروا كيف أن النبي ﷺ ظل عابدا كاملا بعد تلقّيه المعجزات الاقتدارية أيضًا، وظل يقول دائما: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ لدرجة جعل إقرار عبوديته جزءًا لا يتجزأ من الشهادتين التي لا يُعَدُّ المرءُ مسلمًا بدونها، فكّروا ثم فكّروا. فما دامت أسوة الهادي الأكمل ﷺ تعلّمنا هذا الدرس أنه ﷺ حتى وهو في أعلى مقام القرب الإلهي، لم يتخلّ عن الاعتراف بالعبودية، فإن تصوُّر غيره والتفكير بهذه الأمور باطل وعبث محض. (تقرير الجلسة السنوية عام ١٨٩٧)

ثم يقول عليه السلام: "يجب اجتناب التباهي المحض والاستكبار والخيلاء بغير حق، وينبغي التحلي بالتواضع والانكسار. انظروا إن القرآن الكريم سجل نموذجَ تواضع النبي ﷺ الذي كان في الحقيقة أعظم الناس وأجدرهم بالشرف والمكرمة. فقد ورد أن شخصا أعمى كان يأتيه ليتعلم منه القرآن الشريف، وذات يوم

جاء عنده ﷺ أشراف مكة وزعماؤها، فانشغل في الحديث معهم وتأخر قليلا عن الأعمى الذي ما كان منه إلا أن انصرف. ورغم أن الأمر كان بسيطا، فقد أنزل الله ﷻ سورة بذلك، فذهب النبي ﷺ إلى بيته وجاء به، وفرش له ردائه المبارك ليجلس عليه. الحقيقة أن الذين في قلوبهم عظمة الله لا يجدون بدًّا من التواضع والانكسار، لأنهم يخافون استغناء الله دومًا، ويرتجفون من خشيته." (الملفوظات، ج١٠)

إن هذه الواقعة ليست مجرد واقعة وردت في القرآن الكريم أو ذكرها حضرة المسيح الموعود عليه السلام، بل هي درس عظيم يُعلِّمنا أن النبي ﷺ أسوة حسنة لكم، فإن كنتم تدّعون حبَّه فاسعوا أنتم أيضًا إلى بلوغ أعلى مراتب التواضع والخشوع.

وفي موضع من المواضع، يلفت النبي ﷺ انتباه المؤمن إلى حقيقة التواضع والعمل به، في حديث رواه ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما من آدمي إلا في رأسه سلسلتان، سلسلة في السماء، وسلسلة في الأرض، فإذا تواضع العبد رفعه الملك الذي بيده سلسلة من السماء، وإذا تجبر جذبته السلسلة التي في الأرض. (شعب الإيمان للبيهقي)

فالمتكبر لا يُقبَل له عمل، وهو في نظر الله تعالى ساقط منحطّ. وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله عنه "أن العبد إذا تواضع رفعه الله تعالى إلى السماء السابعة." فإذا كنا نتمنى نيل قرب الله تعالى فإن التواضع شيء مهم جدا لتحقيق ذلك.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ. (صحيح مسلم، استحباب العفو والتواضع)

ثم بيَّن هذه المبادئ الأساسية للمؤمن أن الصدقة والتضحية المالية لا تُنقص المال، بل تزيده، لذا أخرجوا من قلوبكم هذا الوهم بأن التضحية المالية ستُنقص مالكم. وإن العفو والتسامح لا يُنقصان من الكرامة، بل يزيدانها. ولو أدرك الناس هذه الحقيقة لحُلَّت كثير من المشكلات والنزاعات الاجتماعية في العالم. ثم قال: إن التواضع يرفع الله به صاحبه، فكلما ازددتم تواضعًا كلما رفعكم الله مقامًا.

وماذا كانت معايير التواضع التي التزمها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه؟ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قَالَ يَا مُحَمَّدُ، يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلّ. (مسند أحمد بن حنبل، مسند أنس بن مالك)

فحين أعلن النبيَّ ﷺ بأمر من الله تعالى أنه عبد، فلم يكتف بالإعلان فحسب، بل أثبتَه أيضًا من خلال نموذجه العملي.

ثم نجد مثالًا آخر على غاية تواضعه ﷺ في الحديث الشريف. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: "لن يُدخِلَ أحدًا منكم عملُه الجنةَ." فقال الصحابة: ولا أنتَ يا رسول الله؟ فقال: "ولا أنا،

إلا أن يتغمَّدني الله بفضله ورحمته. فسدِّدوا وقارِبوا، وأخلِصوا العمل لله، ولا يتمنَّيَنَّ أحدٌ منكم الموتَ؛ فإن كان مُحسِنًا فلعله أن يزدادَ خيرًا، وإن كان مُسيئًا فلعله أن يستعتِبَ" أي يتوبَ فيُزيلَ سخطَ الله عنه. (صحيح البخاري، كتاب المرضى، باب تمني المريض الموت)

ثم ورد في رواية أن أحبّوا المساكين لأن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. (سنن الترمذي)

عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: «كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُكثِرُ الذِّكرَ، ويُقِلُّ اللَّغوَ، (أي إنه كان كثير الانشغال بذكر الله تعالى) ويُطيلُ الصلاةَ، ويُقصِّرُ الخُطبةَ، ولا يَأنَفُ أن يَمشيَ مع الأرملةِ والمسكينِ فيَقضيَ حاجتَهُ. (سنن النسائي)

فهذه كانت حالته في التواضع؛ فضلا عن مستواه السامي فى العبادة التي كانت راسخةً فيه. كان تواضعه قد بلغ درجةً عظيمة، إذ كان يضحى بوقته بكل صبر وأناة لكل مسكين وأرملة، ويستمع إلى حديثهم. وقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه أن أيَّ أَمَةٍ من إماء أهل المدينة كانت تستطيع أن تأخذ بيد رسول الله ﷺ وتذهب به حيث شاءت لقضاء حاجتها.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ: أَنَّ امْرَأَةً (كان في عقلها بعض القصور) لَقِيَتْ النَّبِيَّ ﷺ فِي طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِ الْمَدِينَةِ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً. قَالَ يَا أُمَّ فُلَانٍ اجْلِسِي فِي أَيِّ نَوَاحِي السِّكَكِ شِئْتِ وسأقضي لك حاجتك. فذهب النبي ﷺ في طريق فقصّت عليه حاجتها وقضى ﷺ حاجتها.

على أية حال، جاء في الرواية عن هذه المرأة أن اسمها كان أم ظفر، وكانت خادمةً للسيدة خديجة رضي الله عنها، وكانت محدودة العقل نوعا ما، أي لم تكن بالغة الذكاء، وربما كان في عقلها شيء من القصور، كما يوجد أحيانا أناس لا يستطيعون فهم الأمور جيدا. ولكن هذا لا يعني – حاشا لله – أنها كانت مختلة العقل، غير أنها لم تكن من أصحاب العقول الراجحة، ومع ذلك فقد راعى النبي ﷺ مشاعرها واهتم بها.

وفي رواية أخرى، يقول عدي بن حاتم: توجهتُ إلى رسول الله ﷺ حتى وصلتُ المدينة، فدخلتُ المسجد وحضرتُ بين يدي رسول الله ﷺ وسلّمتُ عليه. فقال: مَن أنت؟ فقلت: أنا عدي بن حاتم. فنهض ﷺ وأخذ يقودني نحو بيته، وفي الطريق اعترضتنا امرأة عجوز مسنّة، فأخذتْ تعرض عليه حاجتها إلى وقت طويل، فوقف النبي ﷺ من أجلها. يقول عدي: فقلت في نفسي: هذا الرجل لا يمكن أن يكون ملكا، فالملوك لا يقفون هكذا للفقراء، ولا يتحلى الملوك بمثل هذه الأخلاق. ثم أخذني النبي ﷺ إلى داره، فأخذ وسادةً غليظة وأعطانيها وقال: اجلس عليها. (كانت وسادةً موجودةً في البيت فأعطاها ضيفَه). فقلت: بل اجلس عليها أنتَ. فقال: لا، اِجلسْ أنتَ. فجلستُ عليها وجلس هو ﷺ على الأرض. فقلت في نفسي: هذا التصرف ليس تصرف الملوك أبدا، بل هذه شِيمة إنسانٍ بالغ في التواضع.

وكان ﷺ يُبدي حبه وتواضعه للأطفال أيضا، إذ كان يبادرهم بالسلام.

يروي أنسٌ أن النبي ﷺ كلما ذهب إلى الأنصار سلّم على أولادهم ومسح رؤوسهم بيده، ويدعو لهم.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ.

يقول المسيح الموعود عليه السلام:

"انظروا! إن نجاحات نبينا ﷺ لم يكن لها نظير في الأنبياء السابقين، لكنه بقدر ما مكَّنه الله ﷻ من النجاحات ازداد تواضعًا.

ذات مرة جيء إليه ﷺ بشخص فرآه يرتجف خوفا، فلما اقترب منه سأله بمنتهى اللطف والرفق لماذا تخاف؟ فأنا الآخر إنسان مثلك، وابن امرأة كانت تأكل القديد". (الملفوظات، المجلد ١٠)

كان النبي ﷺ بعيدا جدا عن الشكليات والتكلف، وهذا يتبين من وقائع هجرته إلى المدينة، وقد سمعناها مرارا.

وقد جاء في رواية أنه لمّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وما إن سمع المسلمون بقدومه حتى نهضوا مسرعين إلى أسلحتهم، واستقبلوه في ميدان الحرّة. فانعطف بهم جهة اليمين ونزل في حيّ بني عمرو بن عوف، وكان ذلك يوم الاثنين في شهر ربيع الأول. فقام أبو بكر رضي الله عنه يلقى الناس ويرحب بهم، بينما جلس رسول الله ﷺ صامتا. وجاء من الأنصار مَن لم يكن قد رأى رسول الله ﷺ من قبل، فأخذوا يُسلّمون على أبي بكر رضي الله عنه، حتى وقعت أشعة الشمس على رسول الله ﷺ. فنهض أبو بكر ﷺ وأرخى رداءه ليُظلّل به رسول الله ﷺ، وعندئذٍ فقط عرف الناس رسول الله ﷺ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ.

كذلك روى علي بن حسن عن أبيه أنه قال: أحبّونا حبًّا للإسلام، فإن رسول الله ﷺ قال لي: لا ترفعوا مقامي ومنزلتي فوق حقّها، فإن الله تعالى قد جعلني عبدا له قبل أن يجعلني رسولا. وقال ﷺ: أحبّوا من أجل حب الإسلام.

عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ قَالَ أَبِي انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا أَنْتَ سَيِّدُنَا فَقَالَ السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قُلْنَا وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا فَقَالَ قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ.

إذن، هذا هو مستوى تواضعه ﷺ، فقد منع القائل فورا وقال له: اترك هذا الكلام وقل ما تريد قوله في صميم الكلام، إذ يمكن أن يؤدي بكم هذه الأمور إلى بعض الأخطاء لاحقا، فبيّنْ ما تهدف إليه وما

جئتَ من أجله ولا تقل بحقي ما ليس صحيحا، مع أن الكلمات التي استخدمها القائل بحق النبي ﷺ كان استخدامها جائزا.

قالت ربيعة بنت معوّذ بن عفراء رضي الله عنها: لمّا كانت ليلة زفافي، جاء النبي ﷺ فدخل عليّ وجلس على فراشي كما أنتم جالسون عندي (تقول ذلك لمن كانت تحدّثه) فأخذتْ بعض الفتيات يعزفن على الدف ويمدحن كبار عائلتي الذين قُتلوا في غزوة بدر، وفي أثناء ذلك قالت إحداهن في شعرها: وفينا نبيٌّ يعلم ما سيكون في الغد. فقال النبي ﷺ فورا: دعي عنك هذا وعودي إلى ما كنتِ تغنّين من قبل، فهذا الكلام غير صحيح، إذ لا علم لي بالغيب، فعالم الغيب هو الله تعالى وحده.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى.

وعلى الرغم من كونه ﷺ أفضل فقد نهى عن هذه المقارنة، مُظهِرا بذلك منتهى التواضع والإنكسار.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ!

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ذَاكَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام.

لا شك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان خيرَ البرية، وأفضلَ الناس، وأفضلَ الرسل، ولكنه بسبب تواضعه الجمّ عزا هذا اللقب إلى إبراهيم عليه السلام.

ونجد مثالا آخر على تواضعه صلى الله عليه وسلم حيث قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: مرةً نادى شخصٌ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات، وفي كل مرة أجابه النبي صلى الله عليه وسلم: لبيك لبيك. عندما فُتحت الجزيرة العربية كلها تقريبا، فإن فاتح العرب هذا صلى الله عليه وسلم قام بالحجّ في رفقةِ مئة ألف من صحابته، وقد بلغ من تواضعه حينها أن قال أنسُ بنُ مَالِكٍ رضي الله عنه: حَجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَحْلٍ رَثٍّ وَقَطِيفَةٍ تُسَاوِي أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ أَوْ لَا تُسَاوِي، ثُمَّ: قَالَ اللَّهُمَّ حَجَّةٌ لَا رِيَاءَ فِيهَا وَلَا سُمْعَةَ.

لقد قال سيدنا المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام في مدح النبي صلى الله عليه وسلم: إن اسمه "أحمد" مظهرٌ للجمال، ويقابله اسمُه "محمد" وهو مظهرٌ للجلال، (هذان اسمان للنبي صلى الله عليه وسلم)، وسببُ ذلك أن اسم محمد يتضمن سِرَّ المحبوبيةِ (أي أنه اسمه محمد صلى الله عليه وسلم إشارة إلى كونه محبوب الله تعالى)، ولأنه صلى الله عليه وسلم جامِعُ المحامدِ، فكمالُ الجمال وجمْعُ المحامد كلها يستلزم الجلالَ والكبرياء (أي إنه صلى الله عليه وسلم جامع للمحامد كلها، وكونه جامعًا للمحامد كلها يستلزم أن يظهر عليه جلالُ الله وأن يُظهر هو جلالَ الله هذا، وأن يتجلى مقامه الأسمى الذي منحه الله له). أما اسم أحمد فيتضمن سِرَّ العاشقية، لأن كون المرء حامدًا يستلزم منه التواضعَ والانكسار وتذلُّلَ العاشقين، وهذا ما يسمَّى حالةَ الجمال، (أي أن اسم أحمد يشير إلى حالة الجمال لأنها تشير إلى العشق الذي يستلزم التواضع والانكسار) وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يتمتع بالمحبوبية (أي كونه محبوب الله) الذي يستلزمه

اسمُ محمد، لأن كون أحدٍ محمدًا، أي جامعًا للمحامد كلها، يفضي عليه صفةَ المحبوبية. كما كان صلى الله عليه وسلم حائزا على شأن المحبية أيضا الذي يقتضيه اسمُ أحمد. (أي إن اسمه أحمد يستلزم أن يكون محبًّا أيضا) لأن الحامد لا بد له أن يكون محبا، فإن الإنسان لا يحمد غيرَه حمدًا صادقا وكاملا إلا إذا أحبّه، بل عَشِقَه. ومِن لوازم الحبِّ والعشقِ التواضعُ، (أي لا بد للعاشق أن يتواضع لمن يحبه، إذ لا يمكن أن يحبه ويعشقه بإرعاب منه) وهذه هي حالة الجمال التي تلازم حقيقة اسم أحمد.

وقد ظهرت المحبوبية المتضمَّنة في اسم محمد على أيدي الصحابة، حيث قضى على الذين كانوا مسيئين ومتمردين لكونه صلى الله عليه وسلم مظهر جلال الله، أي محبوبَ الله، (أي حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم كان محبوب الله فأظهر الله من أجله جلاله على أيدي الصحابة ومزق الأعداء تمزيقا).

وقال عليه السلام في مكان آخر وهو يزيد هذا الأمر إيضاحا:

ومن الأسرار الكامنة في اسميْ النبي صلى الله عليه وسلم المباركينِ محمد وأحمد أن فيهما إشارة إلى اثنين من كمالاته وصفاته، فإن اسم محمد يستلزم الجلال والكبرياء، لأن الذي قد حُمِّدَ غايةَ الحمد يكون متّسمًا بصبغة المعشوق، ولأن المعشوق يُحمَد فلا بد من أن يكون فيه صفة الجلال. أما اسم أحمد ففيه صبغة العشق والحب، لأن الحمد من صفة العاشق، فلا يبرح يحمد حبيبه ومعشوقه.

فكما أن اسم محمد يستلزم الجلال والكبرياء، كذلك فإن اسم أحمد يقتضي التواضع والانكسار حبا وعشقا، فهذا الاسم الثاني يجلّي صفة التواضع والانكسار.

وكان من أسرار ذلك أن حياة النبي صلى الله عليه وسلم مقسومة إلى قسمين، الأُولى هي حياته المكية التي امتدت إلى ١٣ عاما، والثانية هي حياته المدَنية التي امتدت إلى ١٠ سنوات. وكانت حياته المكية تجليًا لاسمه "أحمد"، حيث كانت أيامه ولياليه تنقضي في البكاء والابتهال والدعاء للاستعانة من حضرة الله (أي كانت تلك الفترة متسمة بمنتهى التواضع والانكسار، وهذه الصفة وإن كانت تتجلى فيما بعد أيضا إلا أنها كانت هي المتجلية في الفترة المكية غالبًا).

لو كان المرء مطّلعا حقَّ الاطلاع على نهج حياة النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة لعلمَ أن التضرع والابتهال الذي قام به في حياته المكية لم ولن يقوم به أي من العشاق بحثًا عن حبيبه ومعشوقه أبدا. (هنا يضرب عليه السلام مثال ما ظهر من فناء الرسول صلى الله عليه وسلم في حب الله في حياته المكية خاصةً، وإن كانت حياته كلها زاخرة بهذه الصفة)

هذا، وإن كل هذا التضرع لم يكن لنفسه، إنما كان سببه اطّلاعه الشامل على أوضاع العالم، إذ لم يبق عندها أثرٌ لعبادة الله في العالم، بينما كان صلى الله عليه وسلم وطينته يستمتع بلذة وسرور بما أُودعَ في روحه وفطرته من الإيمان بالله تعالى، فكان بفطرته يريد أن يجعل الناس نشوانين في هذا الحب والمتعة.

ومن ناحية أخرى حينما كان ينظر إلى حالة الدنيا كان يجد قدراتهم وطبائعهم على وضع عجيب غريب، وكان يواجه مشاكل ومصائب كبيرة، فنظرًا إلى هذه الأوضاع السائدة في العالم كان يبكي ويتضرع إلى الله تعالى بحيث تكاد روحه تزهق، ومشيرا إلى ذلك قد قال الله تعالى له: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، أي لعلك تقتل نفسك أسفًا أنهم لا يؤمنون. فكانت تلك الفترة حياة تضرُّعه، وتجليًا لاسمه "أحمد". كان صلى الله عليه وسلم عندها مهتما ومركّزا على هدف عظيم الشأن وقد ظهرت نتيجة ذلك التركيز في حياته المدَنية عند تجلّي اسمه "محمد"، كما يتبين من الآية التالية.

أي كانت الفترة الأولى من حياته تجليا لاسمه أحمد، ولما جاء إلى المدينة تجلى اسمه محمد، حيث قضى على الأعداء بأيدي الصحابة كما ذُكر آنفا. فيقول عليه السلام هنا:

لقد حان عندها ظهور هذا التجلي الثاني كما يتضح لنا من قول الله تعالى: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾، أي أنهم دعوا للفتح والظفر، فصار كل متمرد عدو للحق خائبا وخاسرا. أي لما جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة آذاه العدو أيضا، فظهر تجلي اسمه محمد، فدُمّر كل عدو تدميرا. فقوله تعالى ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ يعني أنه طلب من الله تعالى فتحًا، فكتب الله له الغلبة على أعدائه وقضى على أعدائه ودمرهم تدميرا.

لقد قال المسيح الموعود عليه الصلاة والسلام:

نرى أنه كلما بلغ تواضع النبي صلى الله عليه وسلم وانكساره الذروة في بعض المواقف من حياته كلما كان مؤيَّدا ومنوَّرا بتأييد روح القدس ونوره في تلك المواقف، كما دلل صلى الله عليه وسلم على ذلك بأفعاله وأعماله. وإن نطاق أنواره وبركاته واسع جدا جدا بحيث يتراءى نموذجها وظلّها ممتدا إلى أبد الآباد، (أي سيُرَى نموذجها دائما)، فإن فضل الله وفيضه الذي ينزل في هذا العصر أيضا إنما يُنال ببركة طاعته واتّباعه صلى الله عليه وسلم فقط. وأقول صدقا وحقا، وبناءً على تجربتي الشخصية، إنّ من المحال أن يُعَدّ أحدٌ بارًّا حقيقيًّا، وفائزًا برضا الله حقًّا، وحائزا على تلك الإنعامات والبركات والمعارف والحقائق والكشوف التي تُنال بعد الوصول إلى أعلى درجة من تزكية النفس، ما لم يَفْنَ في اتّباع رسول الله صلى الله عليه وسلم. ونجد الدليل على ذلك في كلام الله تعالى نفسِه: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ}.

وأنا الدليل العملي والحي على إعلان الله هذا. (يقول حضرته: أنا الدليل العملي على هذا الأمر، لأنني أحب النبي ﷺ فتنزل علي أفضال الله تعالى) فاعرِفوني من خلال الآيات المذكورة في القرآن الكريم لأحباء الله تعالى وأوليائه. باختصار، إن كمال أخلاق النبي ﷺ كان بالغا درجة لو أخذت عجوز بيده لوقف معها ولسمع كلامها بانتباه تام وما تركها ما لم تتركه هي.

لقد ورد ذكر تواضعه وبساطته في إحدى الروايات كما يلي:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعُودُ المرِيضَ، وَيَشْهَدُ الجَنَازَةَ، وَيَرْكَبُ الحِمَارَ (أي يركب حتى ولو كان المركب بسيطًا)، وَيُجِيبُ دَعْوَةَ العَبْدِ، وَكَانَ يَوْمَ بَنِي قُرَيْظَةَ عَلَى حِمَارٍ مَخْطُومٍ بِحَبْلٍ مِنْ لِيفٍ، عَلَيْهِ إِكَافُ لِيفٍ. (أي كان بسيطًا جدًّا).

وفي رواية أن عثمان قال وهو يخطب: إِنَّا وَاللهِ قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، فكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا، وَيَتْبَعُ جَنَائِزَنَا. (أي كان يصحبنا في جميع أعمالنا وفي كل مكان).

وكذلك هناك رواية عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ. (أي كان يقبل الدعوة ولو على طعام بسيط، والهدية مهما كانت بسيطة ومتواضعة).

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: لَقَدْ دُعِيَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى خُبْزِ شَعِيرٍ، وَإِهَالَةٍ سَنِخَةٍ. (وقد قبل هذه الدعوة بكل سرور).

وقد ورد ذكر طعامه البسيط في إحدى الروايات كما يلي:

عن أَنَس بْن مَالِكٍ ﷺ، يَقُولُ: إِنَّ خَيَّاطًا دَعَا رَسُولَ اللهِ ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ، قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: فَذَهَبْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى ذَلِكَ الطَّعَامِ، فَقَرَّبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ خُبْزًا وَمَرَقًا، فِيهِ دُبَّاءٌ وَقَدِيدٌ، (أي كان الطبيخ عبارة عن قطع الدباء واللحم) فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَتَتَبَّعُ الدُّبَّاءَ مِنْ حَوَالَيِ القَصْعَةِ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ.

هنا أود أن أقول كلمة لضيوفي أيضًا، فهي درس لهم أيضًا، لأنّه في بعض الأحيان، يعترض بعض الناس ولا سيما في أيام الجلسة على طعام دار الضيافة فيقولون: لا تضعوا لنا من طبيخ اللحم مع البطاطا إلا اللحم فقط. فيجب أن نضع دائمًا أمام أعيننا هذه الأسوة للنبي ﷺ، وهي أن الطعام يُطبخ بكميات محسوبة، لذلك ينبغي أن نأكل مما يُقدَّم لنا، وأن نأكل كل ما يوجد من خضار أو لحم بحب ورضا.

ثم ورد في رواية مثالٌ على مراعاة المشاعر والتواضع على النحو التالي:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَخَذَ بِيَدِ مَجْذُومٍ فَأَدْخَلَهُ مَعَهُ فِي الْقَصْعَةِ ثُمَّ قَالَ كُلْ بِسْمِ اللهِ ثِقَةً بِاللهِ وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ.

وكذلك قال أُسَامَة بْن زَيْدٍ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ رَكِبَ عَلَى حِمَارٍ عَلى قَطِيفَةٍ فَدَكِيَّةٍ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ وَرَاءَهُ. (يعني لم يكن يهتم بمن يجلس معه على المركب)

عن عَبْد الله بْن عَبَّاسٍ قَالَ: أَرْدَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ يَوْمَ النَّحْرِ خَلْفَهُ عَلى عَجُزِ رَاحِلَتِه.

عن أنس ﷺ قال: لما دخل رسول الله ﷺ مكة استشرفه الناس، فوضع رأسه حتى أنه ليمس واسطة رحله، وتوسط الناس، وإن عثنونه ليمس واسطة رحله، أو يقرب منها تواضعا لله ﷻ حين رأى ما رأى من فتح الله تعالى، وكثرة المسلمين، ثم قال: "اللهم إن العيش عيش الآخرة."

ومن جوانب العدل والإنصاف والتواضع أيضًا أن النبي ﷺ أركب خلفه أسامة ابن مولاه المعتوق زيد بن حارثة رضي الله عنهما، مع أن رؤساء قريش وأبناء بني هاشم كانوا حاضرين أيضًا.

يقول المسيح الموعود عليه السلام:

إن العلوّ الذي يعطاه عباد الله الخواص يكون على سبيل التواضع، أما علوّ الشيطان فيكون مقرونًا بالاستكبار. عندما فتح رسول الله ﷺ مكة خفض رأسه وسجد كما كان يخفضه ويسجد في أيام المصائب والمصاعب حين كان ﷺ يتعرض للمعارضة من كل نوع وكان يؤذى بشدة. عندما فكّر النبي ﷺ في كيفية خروجه من هناك وكيفية عودته زخر قلبه بشكر لله فسجد.

وهناك رواية عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ كُنَّا فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ، كُلُّ ثَلَاثَةٍ مِنَّا عَلَى بَعِيرٍ، كَانَ عَلِيٌّ وَأَبُو لُبَابَةَ زَمِيلَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَإِذَا كَانَ عُقْبَةُ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَا: ارْكَبْ يَا رَسُولَ اللهِ، حَتَّى نَمْشِيَ عَنْكَ، فَيَقُولُ: مَا أَنْتُمَا بِأَقْوَى عَلَى الْمَشْيِ مِنِّي، وَمَا أَنَا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ مِنْكُمَا.

وورد في رواية أن النبي ﷺ كان فى سفر فأمر باصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله! عليّ ذبحها، وقال آخر: عليّ سلخها، وقال آخر: عليّ طبخها، فقال ﷺ: وعلىّ جمع الحطب، فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك، فقال: قد علمت أنكم تكفوني، ولكني أكره أن أتميز عنكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه فقام فجمع الحطب.

فما كان يمرّ من موقف إلا وكان النبي ﷺ يُظهر فيه تواضعه بأوضح صورة.

وفي رواية عَنِ الأَسْوَدِ، قَالَ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي بَيْتِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ – تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ – فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ.

ففي هذا درس للرجال الذين يرفضون المشاركة في أعمال المنزل نهائيا، فيعطون الزوجات فرصة للشكوى.

عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَأَلَ رَجُلٌ السيدة عَائِشَةَ هَلْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ شَيْئًا قَالَتْ نَعَمْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَهُ وَيَخِيطُ ثَوْبَهُ وَيَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ كَمَا يَعْمَلُ أَحَدُكُمْ فِي بَيْتِهِ. (مسند أحمد)

ومن هنا تبين أيضا أن الصحابة كانوا يساعدون زوجاتهم في أعمال البيت تأسيا بأسوته ﷺ، وفي الوقت نفسه اتضح أيضا أن مسئولية أعمال البيت هي في الأصل للزوجات، يجب ألا يحسبن أنهن تخلصن من مسئوليتهن، ومن واجب الرجال أن يساعدوهن.

وكذلك ورد في رواية أخرى، عَنِ الْقَاسِمِ عَن السيدة عَائِشَةَ قَالَتْ سُئِلْتُ مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ قَالَتْ كَانَ بَشَرًا مِنْ الْبَشَرِ يَفْلِي ثَوْبَهُ وَيَحْلُبُ شَاتَهُ وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ. (مسند أحمد)

وفي رواية عن أبي بردة، فيها أمرٌ إضافي، فالروايات متشابهة، أنه ﷺ كان يلبس ثياب الصوف ويربط المواشي، ويتوجه للاعتناء بالضيف بنفسه.

فكان يضيِّف الضيوف شخصيا ويرتدي كل لباس مهما كان خشنا، وكان لباسه بسيطا. فعن عامر بن ربيعة قال قال رجل إني خرجت مع النبي ﷺ إلى المسجد وفي الطريق انقطع شسعُ نعله ﷺ فأخذتُه منه لأصلحه فأخذ مني نعله فقال: هذا أثرة، ولا أحب الأثرة.

وعن حسنة بن خالد وصواع بن خالد رضي الله عنهما، أنهما جاءا النبي ﷺ وكان ﷺ مشغولا في ترميم الجدار أو البيت، وكان ينجز العمل بيده؟

وقد ورد في صحيح البخاري تفصيل بناء المسجد النبوي، أن رَاحِلَتَهُ ﷺ بَرَكَتْ عند أرض لغلامين فقال ﷺ هذا المكان مناسب لنا، ثم دفع لهما ثمن الأرض رغم امتناعهما عن استلامه، ثم حين بدأت أعمال البناء شارك الناس وطفق يَنْقُلُ مَعَهُمْ اللَّبِنَ، وبذلك أسهم في أعمال بناء المسجد.

وعن سيدنا البراء بن عازب رضى الله عنه قال رأيت رسول الله ﷺ يوم الخندق وهو ينقل التراب حتى وارى التراب شعر صدره.

يقول سيدنا أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ غَدَوْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ لِيُحَنِّكَهُ (أي أخذ المولود إليه ليُطعمه ﷺ العسل) فَوَافَيْتُهُ فِي يَدِهِ الْمِيسَمُ يَسِمُ إِبِلَ الصَّدَقَةِ. (أي كان يسم أرقام الأبل). فكان كلما سنحت له الفرصة للعمل أنجزه بنفسه بدلا من أن يطلب المساعدين.

وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ مُتَّكِئٌ عَلَى عَصًا فَلَمَّا رَأَيْنَاهُ قُمْنَا فَقَالَ لَا تَفْعَلُوا كَمَا يَفْعَلُ أَهْلُ فَارِسَ بِعُظَمَائِهَا قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ دَعَوْتَ اللَّهَ لَنَا قَالَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَارْضَ عَنَّا وَتَقَبَّلْ مِنَّا وَأَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَنَجِّنَا مِنْ النَّارِ وَأَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ.

قَالَ الراوي فَكَأَنَّمَا أَحْبَبْنَا أَنْ يَزِيدَنَا فَقَالَ أَوَلَيْسَ قَدْ جَمَعْتُ لَكُمْ الْأَمْرَ. أي هذا دعاء شامل فردّدُوه.

يقول سيدنا المصلح الموعود ﷺ: كان من تواضعه ﷺ أنه كان يمنع الناس من القيام عند حضوره عندهم وكان يقول إن هذا دأب الفرس، وأنا لست ملكا، بل قد جعلني الله نبيا.

فكان لتواضعه ﷺ معايير لا نجد لها نظيرا، وهذه هي الأسوة التي يجب أن نسعى للتأسي بها، لكي ننال قرب الله.

يقول سيدنا المسيح الموعود عليه السلام ناصحًا إيانا في ضوء أسوته ﷺ:

أرى أن الطريق الأفضل للتطهر –ويستحيل العثور على أفضل منه– ألا يرتكب المرء أي نوع من التكبر والتفاخر، سواء أكان بالعلم أو بالعائلة أو بالمال. عندما يهب الله تعالى لأحد عينا مبصرة يدرك أن كل نور يمكن أن ينجي من هذه الظلمات يأتي من السماء. الواقع أن الإنسان بحاجة إلى النور السماوي في كل حين. إذ لا تقدر العين أيضا على الرؤية ما لم ينزل ضوء الشمس الذي يأتي من السماء، كذلك النور الروحاني الذي يزيل كلَّ نوع من الظلمات، ويولّد مكانها نورَ التقوى والطهارة، إنما يأتي من السماء فقط.

الحق والحق أقول إن تقوى الإنسان وإيمانه وعبادته وطهارته كلها تأتي من السماء. وهذا يتوقف على فضل الله تعالى، فإن شاء أبقاها، وإن شاء أزالها.

إذن، المعرفة الحقيقية هي أن يعُدّ الإنسان نفسه مسلوبا، وأن يحسب نفسه شيئا لا يُذكَر، ويخرّ على أعتاب الألوهية ويسأله فضله بمنتهى التواضع والتذلل، ويطلب نور المعرفة الذي يحرق أهواء النفس، ويخلق فيه ضياءً وقوة وحماسا لكسب الحسنات. ثم إذا نال نصيبا من فضله تعالى وحظي في وقت من الأوقات بانشراح الصدر وطمأنينة القلب، فعليه ألا يفتخر بذلك ولا يتباهى به، بل ينبغي أن يزداد تواضعا وتذللاً، لأنه كلما حسب نفسه لا شيء نزلت من الله كيفيات وأنوار تهبه نورا وقوة. إذا تمسّك الإنسان بهذا المبدأ فمن المأمول أن تتحسن حالته الأخلاقية بفضل الله تعالى. إن اعتداد المرء بنفسه في الدنيا كبرٌ، يؤدي به إلى أن يبدأ بلعن الآخرين واحتقارهم. (الملفوظات)

ثم قال حضرته: الإنسان الذي هو مخلوق ضعيف يعدّ نفسه لشقاوته كبيرا، حيث تنشأ فيه الأنانية والتكبر، فما دام المرء لا يعدّ نفسه أحقر فلن يتخلص، فقد صدَق "كبير" (الناسك، الذي كان شاعرا صوفيا في الهند) حين قال ما تعريبه:

"الحمد لله قد وُلدت في عائلة عادية صغيرة حيث أسلِّم على الجميع إذ لو كنت من العائلة الكبيرة العريقة لما فزت بقرب الله ﷻ.

عندما كان الناس يفتخرون بانتمائهم إلى عائلة عريقة وعظيمة، كان "كبير" يشكر الله نظرًا إلى عائلته الصغيرة (إذ كان نساجا).

يجب على الإنسان أن ينظر إلى نفسه كل حين وآن أنه كم هو حقير وعديم القيمة، وما هو كيانه. فكل إنسان مهما كان عظيم النسب عندما ينظر إلى نفسه يجدها حتمًا أحقر وغير كفء في العالم بشرط أن يكون مبصرًا، فما دام المرء لا يتعامل مع عجوز مسكينة ضعيفة بأخلاق كما يتعامل أو ينبغي أن يتعامل بها مع إنسان وجيه من عالي النسب، ولم يجتنب كل أنواع التكبر والأنانية والغطرسة فلن يسعه الدخولُ في ملكوت الله حتمًا أبدًا. (أي إذا أردتم الفوز بقرب الله ﷻ فالشرط الأساسي له التواضع)، وفقنا الله ﷻ لاستيعاب حقيقة التواضع ووضْع أسوة النبي ﷺ في عين الاعتبار كل حين وآن.

****